الإعجاز البلاغي المعهود
بين إحاطة العبارة به
والامتناع على الوصف

The usual rhetorical miraculous between surrounded of the phrase and preventing from descriptiveness

إعداد الدكتور

عادل حسني شكري يوسف

Adel Hosni Shokri Youssef

أستاذ البلاغة – قسم اللغة العربية

كلية الآداب - جامعة الملك سعود - الرياض

المملكة العربية السعودية

الإعجاز البلاغي المعهود بين إحاطة العبارة به

والامتناع على الوصف

عادل حسني شكري يوسف
قسم اللغة العربية، البلاغة والنقد ، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية.
البريد الالكتروني: d.adeeel@hotmail.com

الملخّص :
يرى أكثرُ أهلِ البلاغةِ أنَّ مظاهرَ إعجازِ القرآنِ يمكنُ الدلالةُ عليها والتعبيرُ عنها ووضعُ اليد عليها، وهذا الرأيُ قد شاعَ، لكنْ مع ذلك يَحِقُّ لنا أنْ نراجعَه ونتحاورَ مع أصحابِه، وقد خصَّصتُ هذا البحثَ لهذا الغَرضِ، وفيه أُحاولُ أنْ أقفَ على حقيقةِ هذا الرأيِ وأَختبرَهُ. وحتى يتجلَّى الموقفُ أكثرَ، يَعْرِضُ البحثُ رأياً آخرَ في هذ الشأنِ، يرى أصحابُهُ أنَّ إعجازَ القرآنِ يُدركُ بالذائقةِ فحسب، فالإعجازُ كما يرى هؤلاء يستعْصِي على الوصفِ، ولا يمكنُ الدلالةُ عليه. وصحيح أن من يرى أن الإعجاز يفسر ويعلل هو الرأي الأشيع والأسير، لكن الرأي الآخر وإن طوته زوايا الكتب فإن عين المتأمل لا تخطئه وجاهة هذا الرأي، بل ترى أحيانا أنه يرجح لديك، لأن من يتبناه من العلماء لهم قدم راسخة في العلم، ولأن أصحاب التفسير والتعليل تراهم أحيانا يقِرُّون بالعجز عن تفسير المزية في القرآن وبيان سبب إعجازه، لذلك كان من المفيد أن نظهر هذا الموقف الثاني ونعرضه، عسى أن يكون فيه حافز ودافع لفتح نافذة جديدة ترفد دراسات إعجاز القرآن وتغنيه.

ومن هنا أرى أنه من المناسب التوصية بأن ينهض بعض الباحثين بطَرْقِ أبوابٍ أخرى، لغوية كانت أو بلاغية، يلتمسون فيها مظاهر إعجاز القرآن، ولأن الجهود السابقة – كما أقر أربابها – لم تثمر الثمرة المرجوة، فمن الرجاء أن يكون في ذلك دافع لفتح نافذة جديدة، ترفد دراسات إعجاز القرآن وتغنيه.

الكلمات المفتاحية: التَّعْلِيل، الذائقة، الإدراك، الإعجاز، الوصف، الامْتِنَاع.

The usual rhetorical miraculous between surrounded of the phrase and preventing from descriptiveness

Adel Hosni Shokri Youssef

department : Arabic studies، Rhetoric and criticism ،
Faculty of Arts، King saoud University ، Riyadh ، Kingdom of Saudi Arabia

E-mail: d.adeeel@hotmail.com

Abstract:

Most of rhetorical people see the aspects of miraculous of Holy Quran as an inference on expressions and putting the hand on it , as this opinion is mostly popular , as much as we should investigate it and for review and interlocutor with its followers as I have specialized this research to discover the purposes as I can stand on truth of this opinion and to examine it to make the situation more clear and obvious , therefore this research showing another perspective as the followers of the Holy Quran see the miraculous of it by realizing the sole tasty then the miraculous as seen by them is hard to be explained and it could not be inference , so all what have been seen are likely as miraculous to be explained the opinion which are more popular and captive but the last opinion if it is invisible in books for the glimpser as much as to show the misleading in opinion but it could be seen more weighted for you, as the adaptors of the scientists who have a large rooted sciences and the followers of explanations

could be seen declaring the miraculous and to interpret the advantage of Quran, and the clarifying of its miraculous , so this is an important perspective to show the other attitudes and to clarifying it , accordingly it wishes to be an incentive and motives to open a new window for other studies of Quran and richened

Keywords : Reasoning ، Tasty ، Realization ، Miraculous ، Descriptive ، Preventives

المقدمة:

يرى طائفة من العلماء أن إعجاز القرآن ومزايا الحسن فيه تُعَلّل وتُفَسّر، وهذا الرأي وإن كان قد شاع، فإن هناك رأياً آخر له وجاهته، حيث يرى أصحابه أن إعجاز القرآن يدرك بضرب من الإدراك الداخلي يُحِسّ به المتأمل، لكنه لا يستطيع تفسيره ولا بيان أسبابه. وهذا الرأي الثاني جدير بأن يُكشَفَ عنه ويُعْرض عرضاً يليق به، فهو يُعين على تقويم الرأي الأول ومراجعة ما أثمرت الجهود التي بُذلت في سبيله، وهنا يكمن السؤال الحقيقي للبحث، أَمَا لنا أن نطرق أبواباً أخرى، راجين أن نجد فيها بعض مظاهر إعجاز القرآن الكريم، ما دام الطرق على باب النظم لم يُفد كثيراً؟

مقاربة للخطابي

إن مظاهر الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم -على كثرة الباحثين والخائضـــين فيها - مجال أخذ ورد، وقبول ورفض، وبيــن قائل: هذا برهان الإعجاز، ومجادلٍ أن ذلك ليس فيه أي دليل على الإعجاز. وبيــن دارس يرى أن الإعجاز قَصِّـــي وعَصِّـــي، لا يمكن وصــفه ولا تحيط العبارة به، وباحث يجده قريباً دانياً، يمكن وصفه وضبطه.

وقد صـور الخطابي (ت ٣٨٨) في رسـالته (بيان إعجاز القرآن) ذلك خير تصـوير، فقال: "وزعم آخرون أن إعجازه من جهة البلاغة، وهم الأكثرون من علماء أهل النظر، وفي كيفيتها يعرض لهم الإشكال، ويصعب عليهم منه الانفصال، ووجدت عامة أهل هذه المقالة قد جروا في تسليم هذه الصفة للقرآن على نوع من التقليد، وضرب من غلبة الظن دون التحقيق له وإحاطة العلم به، ولذلك صاروا إذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغة التي اختص بها القرآن، الفائقة في وصفها سائر البلاغات، وعن المعنى الذي يتميز به عن سائر أنواع الكلام الموصوف بالبلاغة، قالوا إنه لا يمكننا تصويره ولا تحديده بأمر ظاهر نعلم به مباينة القرآن غيره من الكلام وإنما يعرفه العالمون به عند سماعه ضرباً من المعرفة لا يمكن تحديده ، وأحالوا على سائر أجناس الكلام الذي يقع منه التفاضل فتقع في نفوس العلماء به عند سماعه معرفة ذلك. ويتميز في أفهامهم قبيل الفاضل من المفضول منه، قالوا: وقد يخفي سببه عند البحث ويظهر أثره في النفس حتى لا يلتبس على ذوي العلم والمعرفة به، قالوا: وقد توجد لبعض الكلام عذوبة في السمع وهشاشة في النفس لا توجد مثلها لغيره منه، والكلامان معا فصيحان، ثم لا يوقف لشيء من ذلك على علة، قلت: وهذا لا يقنع في مثل هذا العلم، ولا يشفي من داء الجهل به وإنما هو إشكال أحيل به على إبهام "[١].

١- بيان إعجاز القرآن – ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص٢٤.

هؤلاء طائفة من الباحثين والدارسين لبلاغة القرآن، يعتقدون أن الإعجاز شيء ندركه بالذائقة فحسب، ومن هنا، لا يعرف له سبب ولا تقوم عليه حجة. وهذا شيء يرفضه الخطابي، لأنه لا ينفع في باب العلم.

ولكن لهذا الرأي حضوره، فهو رأي (الأكثرين من علماء أهل النظر)، كما صرح الخطابي نفسه.

ومع أن هذا رأي الأكثرين، إلا أنني ألمس في لهجة الخطابي استهانة بهذا الرأي وقلة اعتداد به، تأنس ذلك في قوله (وزعم)، وهذه لغة التمريض كما هو معلوم، كما يوحي بالاستهانة انصراف الخطابي عن ذكر أسمائهم، مع أنهم (من أهل النظر)، وذكر أنهم الأكثرون.

وفي الحق يبدو أن هذا الرأي له وجاهته، فهذه طائفة من العلماء ترى أن القرآن معجز، وهي تدرك هذا الإعجاز وتستشعره، لكن بضرب من الإدراك الداخلي، لا يجدون له علة ظاهرة، ولا يقفون له على سبب محدد، ومن هنا يصعب وصفه ولا يمكن التعبير عنه بجلاء.

ويغلب على الظن، أن هؤلاء حاولوا في البداية تفسير الإعجاز وربطه بسبب جلي، وربما بدا لهم ذلك قريباً دانياً، فلما حاولوا القبض عليه، وتقييده بالعبارات، وضبطه بصفاته، تفلّت منهم

تماماً، وعجزوا عن الإمساك بشيء محسوس، لذلك عزوا أمر الإعجاز البلاغي إلى الذائقة.

ويعزز موقف أصحاب الذائقة، أن رجلاً مثل السكاكي(ت ٦٢٦)، وهو المغرم بتجسيد كل المبادئ في قوانين، وتشخيص المعارف في ضوابط واضحة بينة، وهو يفعل ذلك بعبارات تشبه عبارات أهل المنطق. حاول السكاكي - وهو صاحب هذه القدرات النافعة في هذا الباب - حاول الإمساك بالإعجاز فلم يقدر، وأراد ذكر أسبابه والعثور على بعض علله فلم يظفر بشيء.

وأحسب أن السكاكي كان يشعر بغير قليل من الخيبة، حينما أعلن الفشل، في تعريف الإعجاز وضبطه بمصطلحات واصفة، هو يشعر بالخيبة لأنه فشل في ميدانه، وخذله قلمه فيما يحسنه، لكنه لم يجد بداً من أن يقول: "فمن الأسفل تبتدئ البلاغة ... ثم تأخذ في التزايد متصاعدة إلى أن تبلغ حداً لإعجازٍ عجيب، يُدرك ولا يمكن وصفه ... ومُدرِكُ الإعجاز عندي هو الذوق ليس إلا"[١].

فالأمر جِدٌ إذن، وليس كما وصفه الخطابي، فالمحققون من أهل البلاغة يدركون الإعجاز ويستشعرونه، لكنهم كلما

١- مفتاح العلوم، ص٤١٦.

حاولوا وصفه بالكلمات وتقييده بالعبارة تفلت منهم، ومن هنا وَكَلَ كثير منهم أمر إدراكه إلى (الذوق وحسب).

ملامح الاتكال على الذوق لدى عبدالقاهر وغيره

وكان عبدالقاهر الجرجاني (ت ٤٧١) من قبل السكاكي عرف أن الأمر جِدٌّ، وأن هذا الاعتقاد سائد لدى طائفة ليست بيسيرة، فنبه عليه في أوائل كتابه دلائل الإعجاز، قائلاً: "وجملة ما أردت أن أبينه لك أنه لا بد لكل كلام تستحسنه، ولفظ تستجيده من أن يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة وعلة معقولة وأن يكون لنا إلى العبارة عن ذلك سبيل، وعلى صحة ما ادعيناه من ذلك دليل.... وإنه ليؤمنك من أن تغالط في دعواك وتدافع عن مغزاك، ويربأ بك عن أن تستبين هدى ثم لا تهدي إليه، وتدل بعرفان ثم لا تستطيع أن تدل عليه، وأن يسألك السائل عن حجة يلقي بها الخصم في آية من كتاب الله تعالى أو غير ذلك، فلا ينصرف عنك بمقنع، وأن يكون غاية ما لصاحبك منك أن تُحِيله على نفسه، وتقول: قد نظرت فرأيت فضلاً ومزية، وصادفت لذلك أريحية، فانظر لتعرف كما عرفت، وراجع نفسك، واسبر وذق، لتجد مثل الذي وجدت"[١].

١- دلائل الإعجاز، ص٤١-٤٢.

عبد القاهر هنا يحذر العالم من أن يستحسن كلاماً ثم لا يجد لذلك علة، أو يسأله السائل عن ذلك فلا يكشف له وجهاً يبين به سبب استحسانه. وكلام عبد القاهر هذا، فيه الدليل على أن هناك قسماً من العلماء كانوا يفعلون ذلك، وهذا القسم هم أنفسهم الذين ذكرهم الخطابي من أصحاب الذوق.

ويبدو أن عبد القاهر قرأ كلام الخطابي عن هذه الطائفة من العلماء، بل رأى عبد القاهر بعضاً من هؤلاء وسمع كلامهم، وهو مهتم برأيهم، يحاول دفعه ويريد نقضه، لذلك عرض لهم مرة أخرى، وذكر أنهم يرون أن المزية "باب لا تقوى عليه العبارة، ولا يملك فيه إلا الإشارة، وأن طريق التعليم إليه مسدود، وباب التفهيم دونه مغلق وأن معانيك فيه معان تأبى أن تبرز من الضمير، وأن تدين للتبيين والتصوير، وأن تُرَى سافرة لا نقاب عليها، وبادية لا حجاب دونها، وأنْ ليس للواصف لها إلا أن يلوح ويشير، أو يضرب مثلا ينبئ عن حسن قد عرفه على الجملة، وفضيلة قد أحسها، من غير أن يتبع ذلك بياناً، ويقيم عليه برهاناً، ويذكر له علة، ويورد له حجة. وأنا أنزل لك القول في ذلك وأدرجه شيئاً فشيئاً، وأستعين الله عليه، وأسأله التوفيق"[1].

ولاحظ قول عبد القاهر (وأن ليس للواصف لها إلا أن يلوح ويشير)، فهو يعود بك إلى كلام سبق له أن ذكره، وجعله أحد

١- دلائل الإعجاز، ص٦٥.

أهم البواعث لتأليف كتابه دلائل الإعجاز، وذلك في قوله المشهور: " ولم ازل منذ خدمت العلم انظر فيما قاله العلماء في معنى الفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة وفي بيان المغزى من هذه العبارات، وتفسير المراد بها، فأجد بعض ذلك كالرمز والإيماء والإشارة في خفاء"[1]. وتأمل قوله (وأنا أنزل لك القول في ذلك ... وأستعين الله عليه، وأسأله التوفيق). تدرك قوة هذا الرأي، ورسوخه وثباته في النفوس، وقربه من القلوب، وسهولة الانتهاء إليه، والاقتناع به، لذلك كله، يشعر عبدالقاهر بغير قليل من الثقل في رد هذا الرأي، فيستعين الله على هذه المهمة الشاقة ، ويسأله التوفيق في إقناع المخالفين في تركه . فعبد القاهر إذن يوافق الخطابي ، فهو لا يرضى مثله الاتكال على الذوق في الحديث عن الحسن والمزية في الكلام ، لأنه ليس فيه مقنع ، بل لا بد من أن تضع اليد على سبب واضح للحسن وجهة معلومة للمزية ، لا بد أن يقدم الدليل الواضح على ذلك ويكشف عن البرهان .

وهذا كله صحيح ، لكن في القضية بقية ، لأننا نواجه في دلائل الإعجازمواقف لعبدالقاهر يقترب فيها من أصحاب الذوق ، إذ يقف أحياناً - وقد راق له البيان وراعه الحسن – حائراً لا يدري سبب أن راقه ذلك الحسن ولا من أي جهة كان . ففي حديثه عن أسرار التعريف (بال) يقول : "وهذا فن عجيب الشان ، وله مكان من

١- دلائل الإعجاز، ، ص٣٤.

الفخامة والنبل ، وهو من سحر البيان الذي تقصر العبارة عن تأدية حقه "[1]. فالفخامة حاضرة وسحر البيان وافر، لكن العبارة تقصر عن وصف هذا السحر ولا يقوم عليه برهان من اللسان . وفي حديثه عن دقة التصوير في قول الشاعر (والشمس كالمرأة في كف الأشل)، يقول : "وحقيقة حالها في ذلك مما لا يكمل البصر لتقريره وتصويره في النفس، فضلاً عن أن تكمل العبارة لتأديته ويبلغ البيان كنهه " [2]. تأمل قوله (تكمل) ، ففيه أن الإنسان قادر على وصف ما يشعر من جمال القول وسحر بيانه ، لكن مع ذلك يبقى قدر من الجمال يعجز عن وصفه ، وهو الجزء الذي يدخل في باب الكمال . فالعبارة تصف لكنها لا تبلغ الكمال في الوصف ، أي تعجز عن إخراج كل ما تشعربه . فاللسان يضبط أشياء وتتفلت من أشياء ، وتقبض اللغة على سبب للحسن، ويلوذ بالفرار منه آخر.

هنا يواجه عبدالقاهر ما واجهه أصحاب الذائقة ، ويقر بالعجز عن وصف ما يجد ، وتكل عبارته عن تصوير المزية . وهذا لا ينقص من الإقرار التام بفرط إحساس عبد القاهر بالحسن ، ولطف تدسسه إلى خفي الأسرار، ولا ينكر أحد حفاوته الشديدة بالبحث عن علة ما يطرب له ، والكشف عن سبب ما يروقه. وفوق كل ذلك ، لا يشك أحد في براعة صنعته اللغوية ، في وصف ذلك

١- دلائل الإعجاز، ، ص١٨٣.

٢- أسرار البلاغة، ص١٨١.

الحسن وإبراز تلك الأسرار إلى العلن . وكانت ملكاته هذه أهم تطور في تاريخ البلاغة ، البحث عن علل الحسن، ثم الدقة في التعبير عنها . صحيح أننا قلما نجد الشيخ في مثل هذا المأزق ، وهو أن تقصر عبارته عن وصف سحر البيان ، لأنه - كما عهدناه – بارع في هذا الباب . ولكننا ذكرنا هذا لكي لا نستخف بموقف من يرى أن الحسن لا يُفَسَّر ، ولا نستصغر راي من يرى أن العمدة في إدراك الإعجاز هو الشعور به وحسب ، وأن المزية قد لا تلين للتصوير بالكلمات، وأنه ليس سهلاً أن ينال اللسان وصف الإعجاز بآلته . وهكذا ندرك أن رأي أصحاب الذوق له وجاهته ، لذلك اعتقده علماء كثر من أهل النظر، كما أنه كان له من الرجاحة ما ضمن له الاستمرار، حتى إن عدداً من أهم المشتغلين ببلاغة القرآن في العصر الحديث ، المحتفين بإثبات إعجازه يرون هذا الرأي ، وتسمع له صدى في كلامهم، من هؤلاء الشيخ محمد عبد الله دراز، وأستاذية الشيخ في باب بلاغة القرآن لا ينكرها أحد، يقول عنه محمد محمد أبو موسى: "لم أعرف أدق ولا ألطف من الشيخ دراز في تحليل آيات الكتاب العزيز"[1]. يجيب الشيخ دراز سائلا متخيلاً ، يحس بقوة أسلوب القرآن وحلاوته ، لكن هذا الإحساس ، لا يزيد عن معنى يتجمجم في صدره، لا يحسن تفسيره ولا يملك تحليله، "ونفسه نزاعة إلى درس تلك الخصائص والمزايا التي استأثر القرآن بها عن سائر الكلام، وكان فيها سر

١- الإعجاز البلاغي، ص (ر) .

إعجازه اللغوي"[1]. يجيب الشيخ دراز هذا السائل قائلاً: "أما الآن فقد والله طلبت منا جسيماً، وكلفتنا مراماً بعيداً لمثله انتدب العلماء والأدباء من قبلنا وفي عصرنا ، فحفيت من دونه أقلامهم، ولم يزيدوا إلا أن ضربوا له الأمثال، واعترفوا بأن ما خفي عليهم منه أكثر مما فطنوا له ، وأن الذي وصفوه مما أدركوه أقل مما ضاقت به عباراتهم، ونحن وقد أفضت إلينا النوبة من بعدهم هل تحسب أننا سنسلك سبيلا غير سبيلهم فنزعم أننا في هذه العجالة سنبرز لك سر الإعجاز جملة؟ كلا، ولا استقراء ما كشفه الناس من جوانبه ، كلا ولا استقصاء ما نحسه نحن من تلك الجوانب"[2] ، لاحظ قوله (أن الذي وصفوه أقل مما ضاقت به عباراتهم) وقوله (كلا ولا استقصاء ما نحسه نحن من تلك الجوانب). فالشيخ هنا يحكم على القدماء ويقر هو على نفسه بالعجز عن وصف أكثر ما يدركه من مزايا القرآن.

والشيخ محمود محمد شاكر من أهم نقدة الكلام ومتذوقي البيان وقد عانى ذلك وعاينه طوال حياته، يقول الشيخ في أثناء دراسته لأبيات من الشعر: "هذه صفة موجزة لهذا القسم الثاني من القصيدة، أرجو أن أوفق في الإبانة عنها تفصيلاً. ولا تعجب لهذا الذي أقدمه من الرجاء بين يدي كلامي، فإن تذوق الجمال، والاستغراق في مجاله، والإحساس الشامل بالحي من نبضاته، والنفاذ الخفي إلى

١- النبأ العظيم، ص١٠٠.

٢- السابق، ص١٠١.

أسراره العميقة المتشابكة المشتبهة، بلذة وأريحية واهتزاز، شيء مختلف عن معاناة الإبانة عن ذلك الذي تجد باللفظ المكتوب. وأجهل الناس من يظن أن جمال الأنغام المتسربة من ألفاظ الشعر وألحانه المركبة، دانية القطوف لكل كاتب أوناقد. فإن اللغة، هي قمة البراعات الإنسانية وأشرفها، وهي أبعد منالاً مما يتصوره المرء بأول خاطر، فما ظنك إذا كانت اللغة عندئذ لغة شعر أو كلام مبين! عندئذ تعيى الألسنة عن الإبانة عن مكنون أسرارها، وتقصر همم ألفاظ النقاد أحياناً كثيرة عن بلوغ ذراها المشمخرة"[١].

وتعقيباً على رأي الشيخ شاكر يقول محمد أبو موسى: "وهذا عجز لا نستطيع دفعه ولا مناص من السير في الباب مع صحبة هذا العجز"[٢]. ويعلن الشيخ أبو موسى عن مثل هذا العجز في هذا الباب في موضع آخر، "هذا ما لا أشك فيه وتراني أوفق أو أخفق في بيان ذلك والكشف عنه، ولكن هذا شيء آخر، وأن عجزي عن وصف سر الحسن لا يعني عجزي عن إدراك الحسن"[٣]. ويقول أبو موسى في صدد حديثه عن الحد الفاصل بين مزايا القرآن وتلك التي في كلام البشر: "ربما وجدها منا من يجدها بحسه وذائقته البيانية ثم تعجز ألسنتنا وأقلامنا عن وصفها وشرحها وتحليلها،

١- نمط صعب ونمط مخيف، ص١٦٩.
٢- الإعجاز البلاغي، ص (م).
٣- الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء، ص٣٥٩.

وعبد القاهر يعلم هذا الذي أقوله"[١]. ويقول الشيخ أبو موسى أيضاً: "وإنما تبقى من البيان هذه الأسرار العالية تُحس ولا توصف أو هي من المكنون في الضمير ، وباب العبارة عنه مسدود"[٢]. ويقول الشيخ أبو موسى أيضاً: " وإذا كان الإحساس بما يروع ويروق محتاجاً لدربة ورياضة فإن التعرف على سر وسبب و علة أن راق وراع أصعب بكثير ، لأن الكلام قد يروقك ثم لا تجد علة لذلك "[٣].

الحسن بين إدراكه بالذوق وإحاطة العبارة به وإمكان وصفه لدى أهل الأدب

ويبدو أن الإقرار بالعجز عن التعبير عن الحسن والجمال ، والهروب إلى الاتكال على (الذوق) ، ليس وقفاً على دارسي البلاغة فحسب ، بل تجد له – لوجاهته – صدى وتوكيداً حتى لدى كبار الأدباء والنقاد ، يقول ابن سلام الجمحي(ت٢٣١): "ويقال للرجل والمرأة ، في الغناء : إنه لندي الحلق، طل الصوت مصيب للحن ويوصف الآخر بهذه الصفة ، وبينهما بون بعيد ، يعرف ذلك العلماء عند المعاينة والاستماع له ، بلا صفة يُنتهى إليها ، ولا علم يوقف عليه "[٤]. ويقوي هذا الموقف ويناصره، كلام

١- المسكوت عنه في التراث البلاغي، ص٦٠٠.
٢- السابق، ص٣٢٤.
٣- السابق، ص٦٠٦.
٤- طبقات فحول الشعراء، ص٦.

للقاضـي الجرجاني يذهب فيه المذهب نفسه، يقول: "وأنت قد ترى الصورة تستكمل شرائط الحسن، وتستوفي أوصاف الكمال ، وتذهب في الأنفس كل مذهب ، وتقف من التمام بكل طريق ، ثم تجد أخرى دونها في انتظام المحاسن، والتئام الخلقة، وتناصف الأجزاء، وتقابل الأقسـام، وهي أحظى بالحلاوة، وأدنى إلى القبول، وأعلق بالنفس، وأسرع ممازجة بالقلب، ثم لا تعلم – وإن قاسـت واعتبرت، ونظرت وفكرت – لهذه الميزة سبباً ، ولما خصت به مقتضياً "[1]. وربما تجد في بيت ابن الرومي(ت٢٨٣)، أحسن تلخيص لموقف النقاد، حيث يقول واصفاً حسن جارية مغنية اسمها وحيد:

يسهل القول إنها أحسن الأشـ ـياء طرأ ويعسر التحديد[2]

كما يبدو أن الشعور بالعجز ، في مثل هذا الموقف ، ينتاب حتى بعض كبار الفقهاء ، فيوافقون أهل النقد والأدب في رأيهم هذا، إذ تروي "جماعة من أهل العلم عن أبي طاهر الحازمي(ت٥٨٤) وغيره من شيوخ المصريين عن يونس بن عبد الأعلى(ت١٧٠) قال: سألت الشافعي رضي الله عنه(٢٠٤) عن مسألة فقال: إني لأجد بيانها في قلبي ولكن ليس ينطلق بها

١- الوساطة، ص٣٤٢.

٢- ديوان ابن الرومي، ص٢/٧٦٣ .

لساني"[1]. وينقل الزركشي(ت٧٩٤) عن ابن أبي الحديد(ت٦٥٦)، كلاماً بيّناً ودقيقاً، يؤكد هذا الموقف ويقويه، ويوضحه بمثل قريب يضربه، يقول: "اعلم أن معرفة الفصيح والأفصح، والرشيق والأرشق، والجلي والأجلى، والعلي والأعلى من الكلام أمر لا يُدرك إلا بالذوق ، ولا يمكن إقامة الدلالة المنطقية عليه ، وهو بمنزلة جاريتين: إحداهما بيضاء مشربة حمرة، دقيقة الشفتين ، نقية الثغر، كحلاء العين، أسيلة الخد، دقيقة الأنف، معتدلة القامة، والأخرى دونها في هذه الصفات والمحاسن، لكنها أحلى في العيون والقلوب منها، وأليق وأملح، ولا يُدرى لأي سبب كان ذلك، ولكنه بالذوق والمشاهدة يُعرف، ولا يمكن تعليله، وهكذا الكلام، نعم يبقى الفرق بين الوصفين أن حسن الوجوه وملاحتها، وتفضيل بعضها على بعض يدركه كل من له عين صحيحة، وأما الكلام فلا يعرفه إلا بالذوق "[2].

وهكذا، يكاد هذا الرأي يرجح، لكن الاتفاق عليه من قبل هذه الجمهرة من أهل العلم، لا يمنع الخطابي أن يرفضه بحزم، فيجتهد ليحدد مظاهر البلاغة المعجزة للقرآن الكريم، ويصور بدقة أسبابها، وبعد النظر والتدقيق يرى: "ان أجناس الكلام مختلفة .... فمنها البليغ الرصين الجزل، ومنها الفصيح القريب

١- الوساطة، ص٣٥٧.

٢- البرهان في علوم القرآن، مج ١، ج٢، ص١٢٤.

السهل، ومنها الجائز الرسل، وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود دون النوع الهجين المذموم، الذي لا يوجد في القرآن شيء منه "[1].

١- بيان إعجاز القرآن – ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص٢٦.

تقويم بعض دارسي إعجاز القرآن لدراسات بعضهم

يحدد الخطابي – كما مضى قبل قليل – ثلاثة أقسام للكلام الفاضل المحمود ، ثم يُفصّل الكلام في كل قسم من الأقسام الثلاثة، ظاناً أنه عثر على الأسباب الحقيقية لبلاغة القرآن، وأنه أظهر ما خفي على الناس، وكشف الغامض الذي التبس عليهم وجلاه، ولكن عند التحقيق ترى أنه لم يزد على من سبقه شيئاً، وما الأقسام الثلاثة التي ذكرها إلا إحالة جديدة على إبهام جديد ، ولا يخرج المرء منها بطائل ، يقول الشيخ محمود محمد شاكر معقباً على ما اقترحه الخطابي من الأوجه السابقة: " والعجب من هذه المبهمات الثلاثة التي لا حدود لها، إذا هي اجتمعت كيف يخرج منها ما نسميه (إعجاز القرآن)" [١].

وبعد الخطابي يأتي الباقلاني(ت٤٠٣)، صاحب كتاب (إعجاز القرآن) ، وهو أول كتاب يحمل هذا الاسم، وقبل أن يخوض في مسائل الإعجاز على طريقته ، قوم تجربة الجاحظ في كتابه فقال "وقد صنف الجاحظ في نظم القرآن كتاباً، لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله، ولم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى"[٢]. وموقف الباقلاني من دراسة الجاحظ (ت٢٥٥)،

١- مداخل إعجاز القرآن، ص٨٤.

٢- إعجاز القرآن: ص٦.

يؤكد أن دراسة الإعجاز لا تتقدم ، وبدلاً من أن تتراكم المعرفة وتتكامل الجهود ، فإنها تتدافع ، وعوضاً من أن تستكمل جوانب النقص فيما بينها ، يلغي بعضها بعضاً . وكلما بذل أحدهم جهداً في هذا الباب بدأ من الصفر إذا صح التعبير، ومن هنا، لايزال الإعجاز في مأزق، ووصفه لايزال يزداد صعوبة. وإذا كان هذا هو نصيب الجاحظ في ميزان الباقلاني ، فإن حظ الباقلاني نفسه في بيان الإعجاز، لم يكن عند بعض المحققين والدارسين أفضل من حظ الجاحظ ، فالرافعي يرى أن الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن "لم يملك فيه بادرة عابها هو من غيره، ولم يتحاش وجها من التأليف لم يرضه من سواه ، وخرج من كتابه كما قال هو في كتاب الجاحظ لم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى"[1] ، ويوافق الشيخ محمود شاكر شيخه الرافعي، إذ يرى أن الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن "لم يخرج من جميع نقده لأقوال من تقدمه ولا من محاولته كشف الإبهام عن معنى البلاغة، إلا بأقوال محصلها هي أيضاً إشكال أحيل إلى إبهام "[2]، ويقول أيضاً: إن الباقلاني "لم يزد على أن بين خُلوَّ القرآن من الاختلاف والتغيُّر، وبراءته من كل ما يلحق كلام الناس من عيب وخلل... ولكنه (أي ما فعله الباقلاني) غير الذي

١- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص١٠٦.

٢- مداخل إعجاز القرآن، ص١٠١.

ينبغي أن نتطلبه من كشف أصول البيان التي يفارق بها بيان القرآن بيان البشر"[١].

وهذا أمر غريب، فإن محاولات العلماء في سبيل بيان إعجاز القرآن، كلما تكاثرت ابتعدت عن هدفها، وتمادت وأوغلت في الغموض أكثر. وهكذا نلحظ، أنه كلما احتشد دارس لهذه المهمة ، ولاحت له دلائل جديدة، وظن أنها الطريق القريب، وأنه آن للناس أن يتحققوا من الإعجاز ويقفوا على علله وأسبابه، جاء من أصحاب الاختصاص، من يرى أنه أخطأ الطريق ، ولم يفلح في فتح الباب المطلوب . حتى إن بعض أهل العلم يكاد يحكم بأن دراسات الإعجاز في تراثنا لم تثمر عن شيء ، يقول الشيخ الطاهر بن عاشور: "لم أر غرضاً تناضلت له سهام الأفهام ولا غاية تسابقت إليها جياد الهمم فرجعت دونها حسرى مثل الخوض في وجوه إعجاز القرآن"[٢].

لكن مع ذلك، بقيت الكتب تتوالى، والمحاولات تتعدد وتستمر في الاتجاه نفسه، لكن الهدف المنشود في ضبط الإعجاز ووضع اليد على علة واضحة له، يظل أبعد عن المتناول. ومع كل محاولة غير ناجحة، كان الاعتقاد يقوى أكثر، بأن الإعجاز لا يفسر، وأن الذائقة وحسب هي طريق معرفته.

١- مقدمة الظاهرة القرآنية، ص٤٦.

٢- التحرير والتنوير، مج١/ص١٠١.

ثم يأتي بعد الباقلاني عبد القاهر الجرجاني، شيخ البلاغة وعلم البيان، ليشارك الأعلام السابقين في إضاءة قضية الإعجاز وكشف اللبس عنها، لكن قبل ذلك تنبه عبدالقاهر، إلى أن أهل البلاغة لم يحرروا المصطلحات البلاغية، ولا ضبطوا معانيها، ولم يسجلوا الفروق الدقيقة بينها، لذلك بدت له هذه المصطلحات غامضة، ومعانيها متداخلة، فآثر أن يحرر هذه المصطلحات أولا، ثم بعد ذلك يستخدم هذه الحدود المحررة البيّنة والتعريفات المقررة، في بيان إعجاز القرآن بلاغياً. يقول عبد القاهر: "ولم أزل منذ خدمت العلم أنظر فيما قاله العلماء في الفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة وفي بيان المغزى من هذه العبارات وتفسير المراد بها، فأجد بعض ذلك كالرمز والإيماء والإشارة في خفاء"[1].

وكان عبد القاهر يرى أنه لا يصلح أن تتخذ أداة تائهة، وإشارة غامضة ومصطلح ملتبس، سبيلاً لبيان أدق غاية، وهي قضية الإعجاز. لذلك جعل الشيخ كشف غموض مصطلحات البلاغة همَّه، وبيان حدودها غايته ومقصده. لكن لم يكن ذلك بالأمر الهين، فقد خصص لهذه الغاية كتاب (دلائل الإعجاز) كله.

وكأن إهمال العلماء لهذا الواجب لفترة طويلة زاد هذه المصطلحات غموضاً، فاحتشد عبد القاهر للنهوض بالمهمة،

١- دلائل الإعجاز، ص.٣٤.

وجمع لها أسبابها، فنظر في كلام العلماء وتأمله ، وقصد شعر الشعراء وحلله ، وضرب المثال بعد المثال ، واستحضر الشاهد بعد الشاهد ، راجياً أن يعين ذلك على ضبط معنى كل مصطلح ، لعلمه أن الغموض شديد في هذه المفاهيم ، فلا تتبين معالمها ، ولا تتكشف حدودها إلا بتقديمها من خلال مزيد من تحليل الشواهد ، وتذوق الكلام العالي .

ويبدو أن الوفاء بهذه المهمة الصعبة ، والغاية النبيلة ، قد استهلكت جهود عبدالقاهر ، وأكلت قواه ، واستنفدت طاقته، فلم يجد بقية وقت ولا فضل نشاط لإكمال المهمة الأخرى، والهدف الرئيسي الذي عقد له كتابه، وهو أن يقيم الدليل الواضح الكاشف لإعجاز القرآن، فالشيخ عبدالقاهر، إذا كان - كما يرى محمود شاكر- قد نجح باقتدار، فأزال الغموض عن حدود ألفاظ البلاغة ، وأضاء جوانب مصطلحاتها، وأنار إبهامها، فإنه "قد نصب لنا إبهاماً آخر .... لا هو استطاع البرهان عليه ولا أحد غيره ممن جاء بعده "[1]، وذلك أن عبد القاهر تعهد أن ينصب الدليل واضحاً على بلاغة القرآن السامية، المتفردة، وأن يثبت أنها في مكان بعيد ، حيث دونها " تنقطع الأطماع، وتحسر الظنون، وتسقط القوى، وتستوي الأقدام في العجز "[2]. لم يحد لنا عبدالقاهر هذا الحد، ولا بيّن لنا كيف يكون ذلك الافتراق

١- مداخل إعجاز القرآن، ص١١٣.

٢- السابق، ص١١٤.

البين والواضح، بين كلام البشر وكلام الله سبحانه، الذي تنقطع دونه الأطماع وتحسر الظنون، وتسقط القوى وتستوي الأقدام في العجز.

إذاً حتى محاولة عبد القاهر، الراقية المتميزة، في دراسة البلاغة وتذوق الأسلوب العالي، تقع دون مقصدها، ولا تبلغ هدفها في بيان إعجاز القرآن البلاغي، بياناً شافيا كاشفا لا يلتبس بشيء. وهذا ليس رأي محمود شاكر وحده، بل يؤيده في هذا محمد محمد أبو موسى، حيث يقول "وكان عبد القاهر وهو يضع بلاغة هذا اللسان الشريف يمهد الطريق إلى علم آخر شريف هو علم الإعجاز، ويبدو أنه امتهد الطريق فحسب، ثم وقف حيال الباب ولم يطرقه الطرقات التي تُفضي إلى باحاته الغريبة والعجيبة والخارقة، والتي لانزال نحوم حولها ولا نرد عبابها "[1]. ويوافق محمد الأمين الخضري الشيخين شاكر وأبا موسى، حيث يرى أن عبد القاهر أقام علم البلاغة وأوشك أن يقيم (علم الإعجاز)، وكان "دانياً منه كل الدنو، ولكنه وقف دونه ولم يقتحم أسواره"[2] .

١- دراسة في البلاغة والشعر، ص٣٩.

٢- دراسات في إعجاز القرآن، ص٣، وينظر أيضا ص٧.

الخاتمة:

صحيح أن من يرى أن الإعجاز يفسر ويعلل هو الرأي الأشيع والأسير، لكن الرأي الآخر وإن طوته زوايا الكتب فإن عين المتأمل لا تخطئه وجاهة هذا الرأي، بل ترى أحيانا أنه يرجح لديك، لأن من يتبناه من العلماء لهم قدم راسخة في العلم، ولأن أصحاب التفسير والتعليل تراهم أحيانا يقِرُّون بالعجز عن تفسير المزية في القرآن وبيان سبب إعجازه، لذلك كان من المفيد أن نظهر هذا الموقف الثاني ونعرضه.

ومن هنا أرى أنه من المناسب التوصية بأن ينهض بعض الباحثين بطَرْقِ أبوابٍ أخرى، لغوية كانت أو بلاغية، يلتمسون فيها مظاهر إعجاز القرآن، ولأن الجهود السابقة – كما أقر أربابها - لم تثمر الثمرة المرجوة، فمن الرجاء أن يكون في ذلك دافع لفتح نافذة جديدة، ترفد دراسات إعجاز القرآن وتغنيه.

المصادر والمراجع

١. الباقلاني، أبو بكر: إعجاز القرآن، تح: السيد أحمد صقر، دار المعارف بمصر، ١٩٦٣.
٢. الجرجاني، عبد القاهر: أسرار البلاغة، تح: محمود محمد شاكر، ط١، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، ١٩٩١.
٣. الجرجاني، عبدالقاهر: دلائل الإعجاز، تح: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٩.
٤. الجمحي، ابن سلام: طبقات فحول الشعراء، تح: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٨٠.
٥. الخضري، محمد الأمين: دراسات في إعجاز القرآن الكريم، ط١، مكتبة وهبة، القاهرة، ٢٠١٧.
٦. الخطابي، أبو سليمان محمد بن حمد بن إبراهيم: بيان إعجاز القرآن- ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تح: محمد خلف الله أحمد و محمد زغلول سلام، ط٥، دار المعارف، القاهرة.
٧. دراز، محمد عبد الله: النبأ العظيم، دار القلم، الكويت، ١٩٨٨.
٨. الرافعي، مصطفى صادق: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مكتبة مصر، القاهرة.
٩. ابن الرومي، أبو الحسن علي بن العباس بن جريج: ديوان ابن الرومي، تح: حسين نصار، ١٩٨١.

١٠. الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، عالم الكتب، الرياض، ٢٠٠٣.
١١. السكاكي، أبو يعقوب يوسف: مفتاح العلوم، تح: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، ط٢، بيروت، ١٩٨٧.
١٢. شاكر، محمود محمد: مداخل إعجاز القرآن، ط١، مطبعة المدني، القاهرة، دار المدني بجدة، ٢٠٠٢.
١٣. شاكر، محمود محمد: مقدمة الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٧.
١٤. شاكر محمود محمد: نمط صعب ونمط مخيف، مطبعة المدني القاهرة، دار المدنب بجدة، ط١، ١٩٩٥.
١٥. ابن عاشور، محمد الطاهر: تفسير التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس.
١٦. القاضي الجرجاني، علي بن عبد العزيز: الوساطة بين المتنبي وخصومه، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، دار القلم ، بيروت..
١٧. أبو موسى، محمد محمد: الإعجاز البلاغي (دراسة تحليلية لتراث أهل العلم)، ط٥، مكتبة وهبة، القاهرة، ٢٠١٢.
١٨. أبو موسى، محمد محمد: دراسة في البلاغة والشعر، مكتبة وهبة، ط١، القاهرة، ١٩٩١.
١٩. أبو موسى، محمد محمد: (الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء)، مكتبة وهبة، ط١، القاهرة، ٢٠٠٨.
٢٠. أبو موسى، محمد محمد: المسكوت عنه في التراث البلاغي، مكتبة وهبة، ط١، القاهرة، ٢٠١٧.

References :

1. albaqlani, 'abu bakr: 'iiejaz alqurani, taha: alsayid 'ahmad saqra, dar almaearif bimasr, 1963.
2. aljirjani, eabd alqahir: 'asrar albalaghati, taha: mahmud muhamad shakir, ta1, matbaeat almadanii bialqahirati, dar almadanii bijidatin, 1991.
3. aljirjani, eabdalqahir: dalayil al'iiejazi, taha: mahmud muhamad shakiri, maktabat alkhanji, alqahirati, 1989.
4. aljamhy, abn salam: tabaqat fahawl alshueara'a, taha: mahmud muhamad shakir, matbaeat almadani, alqahirati, 1980.
5. alkhudari, muhamad al'amini: dirasat fi 'iiejaz alquran alkarimi, ta1, maktabat wahbata, alqahirati, 2017.
6. alkhatabi, 'abu sulayman muhamad bin hamd bin 'iibrahim: bayan 'iiejaz alqurani- dimn thalath rasayil fi 'iiejaz alqurani, taha: muhamad khalaf allah 'ahmad w muhamad zaghlul salam, ta5, dar almaearifi, alqahirati.
7. drazi, muhamad eabd allahi: alnaba aleazimi, dar alqalami, alkuayti, 1988.
8. alraafiei, mustafaa sadiqa: 'iiejaz alquran walbalaghat alnabawiata, maktabat masiri, alqahirati.

9. abin alruwmi, 'abu alhasan eali bin aleabaas bin jiriji: diwan abn alruwmi, taha: husayn nasar, 1981.
10. alzarkashi, badr aldiyn muhamad bin eabd allah, alburhan fi eulum alqurani, taha: muhamad 'abu alfadl 'iibrahim, ealim alkutubu, alrayad, 2003.
11. alskaki, 'abu yaequb yusif: miftah aleulumi, taha: naeim zarzura, dar alkutub aleilmiati, ta2, bayrut, 1987.
12. shakri, mahmud muhamad: madakhil 'iiejaz alqurani, ta1, matbaeat almadani, alqahirata, dar almadanii bijidatin, 2002.
13. shakri, mahmud muhamadu: muqadimat alzaahirat alquraniat limalik bin nabi, dar alfikri, dimashqa, 1987.
14. shakir mahmud muhamad: namat saeb wanamat mukhayfi, matbaeat almadanii alqahiratu, dar almudanib bijidati, ta1, 1995.
15. abin eashur, muhamad altaahiri: tafsir altahrir waltanwiru, dar sihnun lilnashr waltawzie, tunus.
16. alqadi aljirjani, eali bin eabd aleaziza: alwisatat bayn almutanabiy wakhusumihi, taha: muhamad 'abu alfadl 'iibrahim waeali muhamad albajawi, dar alqalam , bayrut..

17. 'abu musaa, muhamad muhamadu: al'iiejaz albalaghiu (dirasat tahliliat liturath 'ahl aleilm), ta5, maktabat wahbata, alqahirati, 2012.
18. 'abu musaa, muhamad muhamad: dirasat fi albalaghat walshaera, maktabat wahbata, ta1, alqahirati, 1991.
19. 'abu musaa, muhamad muhamadu: (alshier aljahilii dirasat fi manazie alshueara'), maktabat wahbata, ta1, alqahirati, 2008.
20. 'abu musaa, muhamad muhamad: almaskut eanh fi alturath albalaghi, maktabat wahbata, ta1, alqahirati, 2017.